السياسة الصحية فى الريف

لحضرة صاحب السعادة الدكتور سليمان عزمى باشا

كلمة السياسة كلمة خلابة تستهوى النفوس وتهز المشاعر وتثير العواطف بنغمتها الرنانة الفخمة — وما هى إلا لفظ لا أثر له إن لم يقترن بما يدعمه من قوة وجاه ومال ورجال وان لم يستند فى تنفيذ المقصود من معناه على مدعمات ومقومات لنجح وتم الأغراض والمقاصد المنشودة .

والسياسة بمعناها الاجتماعى .

استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المجدى فى العاجل والآجل .

وبمعناها المدنى تدبير العيش مع الجميع على ما تقضى سنن العدل والاستقامة .

بذلك يقوم ما أعوج من الشئون ويصلح ما فسد منها .

وإذا استعملنا عنوان السياسة الصحية فى الريف على هذا الأساس لتحسين حالة الريف ورفع المستوى الصحى بين سكانه نرى أن شئونها متداخلة ومرتبطة بشئون أخرى يتم بعضها بعضا ويقومه ويصلحه أما مباشرة أو غير مباشرة فانتشار التعليم واستتباب الأمن وازدياد العمران وتنظيم الرى — وردم البرك والمستنقعات وتحسين حال المعيشة والزراعة والصناعة وغيرها مما يضيق الوقت عن ذكره تفصيلا كل ذلك يجب أن ينظر إليه كوحدة أو سياسة إصلاحية واحدة يتفرع منها ضروب نشاط متنوعة كل منها يفيد الأخرى إذا ما صلح ، ويفسده إذا ما فسد كضروس الساعة إذا اختل منها ضرس تعطلت الساعة وان سلمت باقى أجزائها .

وقد نقضى وقتا طويلا ونسهب فى الشرح إذا ما تناولنا بالبحث كل هذه الشئون ولكنى أقصر حديثى على الأهم بإيراد بعض الأمثال .

تستند السياسة الصحية فى الريف على تنمية ثروة المناطق وازدياد رخائه وتدعيم بنيان عمل صريح لإنتاج ليكتسب منه قوته وقوت أولاده ودوابه — ويزيد على ذلك قليلا لصرفه فى احتياجاته الأخرى إن لم يكن عنده مورد رزق من عقار يستغله — ويكون ذلك بازدهار الصناعة الزراعية والصناعات المنزلية البسيطة والقليلة الكلفة ليرتزق منها سكان الريف لضعف وسائلهم المادية فى الحصول على الآلات ذات الكلفة التى لا قدرة لهم على الحصول عليها .

وتعتمد على إيجاد جمعيات تعاونية تساعد الفلاح على تصريف محاصيله ومنتجاته وعلى إكثار إنتاجه فيتبع ذلك تحسين حالته المالية ويتبع تحسين الحالة المالية تحسين الصحة — قد يتساءل السامع الكريم . ما لهذا وللسياسة الصحية ؟ فالجواب — إني أريد أن أعرف كيف ينفذ الفلاح ما يطلب منه من غسل جسمه وملابسه بالصابون اذا لم يجد ثمن الصابون ليشتريه واذا لم يكن عنده من الملابس ما يلبسه في أثناء غسيل الأخرى لأن الأجر الذي يكسبه الآن يكاد لا يكفي غذائه ، فهو يعيش فوق مستوى الفقر بدرجة بسيطة جدا ان لم تكن معيشته على هذا المستوى فعلا . وان تصلح شئونه الصحية وغير الصحية ان لم يزد تكسبه عن مجرد الحصول على الضروريات .

وتستند السياسة الصحية في الريف أيضا على نشر التعليم فيزيد ادراك الشعب ويسمو فهمه ويقدر قيمة المعيشة الصحية ويفهم المقاصد والأغراض التي يرمي اليها كل اصلاح يساعد ويعاون على تدعيمه ويتبع الارشادات الصحية التي تلقى عليه .

الفلاح الذي يقضي حاجاته على قارعة الطريق يضر أيما ضرر بدون أن يدري بالصحة العمومية خصوصا اذا اختلطت هذه المواد بمياه الشرب أو الغسيل أو الاستعمال ولا يقدر هذا الضرر البالغ ويرى أن ما يعمله أمرا طبيعيا درج عليه من صغره وشب وشاب عليه .

وهذا أيضا جواب على ما يتساءل عن دخل التعليم في السياسة الصحية وتحسينها . فلا يجب اذن أن يقتصر التعليم على اللغة والحساب وما اليها بل يجب أن يشمل التربية وتهذيب الأخلاق وتحسين العادات ، ومنها تعليم الأطفال وتدريبهم على النظافة وعلى اجتناب المرض وتفهيم فوائد ذلك ، فمبادئ المنشآت التعليمية الى الصحة نتائج وفوائد لا يستهان بها ، غنية عن الشرح والبيان .

لكيما يؤدي المصلح الاجتماعي رسالته خير أداء لإصلاح الشعب يجب عليه أن يلم بنفسية الشعب الذي يبغي اصلاح حاله . فتكون عنده معرفة تامة بعاداته وأخلاقه ، احتياجاته واعتقاداته . وما يستسيغه وما يألفه ، وما يأنفه من طعام أو شراب وغيرهما وعن مقدرته المالية والعقلية وكيفية الوصول الى اقناعه بما ينفعه وبما يضره بكلام يتقبله قبولا حسنا ، فلا يحجم عن اتباع الارشادات والتعليمات . بل يعمل من جهته على مساعدة المصلحين والساعين لإسعاده واصلاح وتحسين حاله فيكون المصلح اذن قد كسب ثقة الشعب ومساعدته .

العبارة الآتية مقتطفة مما كتبته عن رجل الطب والأعمال بهذا العدد في مجلة المقتطف عدد مارس سنة ١٩٤٤ "يحتم عليه أن يكون ذا ثقافة بسيكولوجية لينجح في تأدية رسالته ، لأن الطب أقرب اليوم الى البسيكولوجية العملية . فعمله ليس مقصورا على الأفراد بل والجماعات أيضا وكل طبيب حاز شهرة في فنه عنده خبرة بسيكولوجية عملية وان لم يكن قد درسها من قبل ، وهكذا الحال في رجال الأعمال الناجحين في عملهم التي تحتاج لمعاملة الأفراد والهيئات والحكومات" .

قال لابوتير "من يعش في وسط الشعب في الريف مفتحا عينيه يكتشف اكتشافات هامة ويزداد باختباراته المستمرة في معرفة الانسانية" .

أذكر المشاهدة الواقعية الآتية : لأنها تبين صحة ما ذهبت إليه من ضرورة معرفة المصلحين لنفسية وعوائد وأخلاق الشعب الذي يريدون إلى إصلاح حاله .

في جهة ما بالقطر المصري ، أنشئ مصرف على شكل قوس أو نصف دائرة حول قرية ما ، وهو يفصل هذه القرية عن الطريق العمومي ، وبنيت قرية في إحدى طرفي القوس ، فأصبح كل من يقصد منزلا إلى القرية يجوض بمواشيه المصرف في مقابل منزله لبعد القنطرة عنه فيهدم المصرف وتنهار جسوره ، ويعاف المصرف ، ثم تصلح وزارة الأشغال ما فسد فيعود الفلاح إلى خوض المصرف وتعود الوزارة إلى إصلاحه وتكرر ذلك مرارا وصرفت مبالغ لا يستهان بها وكان يمكن توفيرها إذا لوحظت هذه العادة عند الفلاحين وعمل أكثر من قنطرة واحدة في أماكن مناسبة .

إني أؤكد أن تكاليفها كانت تكون أقل مما سيصرف وما صرف على إصلاح جسور المصرف بعد انهيارها وتهدمها من خوض الفلاحين ومواشيهم ودوابهم .

فحالة الفلاح الصحية من مسكن وما كل وملبس ووقاية وعلاج ونظافة وما إليها مرتبطة أشد الارتباط بمقدرته المالية وبالأمن العام وبانتشار العلم والصناعات المحلية والمنزلية والزراعية ، وحالة الري والمصرف ورواج التجارة وانتشار وسيلات المواصلات غير ذلك مما لا يقع تحت حصر كما ذكرت ، ثم هي مرتبطة بنفسية كبار الموارين . الشركات العقارية الذين يعملون على مساعدة عمالهم عند بؤسهم ومرضهم وعلى إيجاد أعمال لهم ومرتبطة بوزارة الشؤون الاجتماعية لكي تعول اليتامى والعجزة وذوي العاهات والمسنين غير القادرين على العمل بإيجاد ملاجئ لهم أو بصرف إعانات مالية لهم (ويخفف العبء عن ذويهم) هم أنفسهم غير قادرين على سد حاجاتهم .

ومرتبطة بوزارة الصحة لقيام بمشروعاتها الوقائية والعلاجية ومرتبطة بتحسين غذائهم قلت هذا وسأكرر دائما ما قلت لأنه عقيدة راسخة في قرارة نفسي . إن التغذية الصحية الكافية من أهم الوسائل للمحافظة على الصحة والعافية ومقاومة الأمراض والوقاية منها ، كما أنها من خير وأحسن الوسائل لاسترداد الصحة والعافية إذا ما فقدها الإنسان بسبب المرض بعد الشفاء منه .

ذكرت في إحدى مقالاتي عن شؤون الفلاح في جريدة الأهرام في سبتمبر سنة ١٩٤٣ أني عملت تجربة متواضعة في مزرعتي ، فأعطيت بعض الفلاحين مواشي يقتنونها ، ليأكلوا من منتجاتها ولاحظت تحسنا واضحا جدا في صحة من اقتنوا المواشي وتحسنت حالتهم المالية على وجه العموم .

وقد وقع تحت نظري وأنا أكتب هذا المقال مقالا عن التغذية والاعانة بالترويج أقتبس منه العبارة الآتية لمطابقتها تماما لما ذهبت اليه ولما لاحظته في مزرعتي من سنين وقمت به نحو فلاحيها على صغر المزرعة .

العائلات التي تشتغل في أعمال ثانوية زيادة على عملها الأصلي الذي تؤجر عليه مثل زراعة بطاطس أو خضر في قطعة من الأرض تزيد قيمة تغذيتها بنسبة ٢٠٠ من الفرد الواحد منها.

وأفراد العائلة التي عندها بقرة حلوب تزيد تغذية الفرد اليومي منها بمقدار ٦٠٠ سعراً أكثر من الفرد في العائلات الأخرى.

من ذلك يتضح جليا أهمية اشتغال المزارع في شيء صغير يزرع فيه بعض الخضروات ويربي حاموسة أو بقرة أو أرنب أو بعض الدواجن أو غير ذلك مما يزيد دخله ويساعد مساعدة فعالة على زيادة كمية التغذية وتصريف تهيم الصحية والمالية. تحسين مكتسبه عن ما يساعد غيرهم في العائلات القاصرة تغذيتهم على ما يشترونه من المواد الغذائية من أجرهم اليومي فقط.

ونظير كذلك فائدة الحاموسة أو البقرة كعنصر هام في تحسين التغذية وفي تحسين الصحة العامة ومقاومة الأمراض عن طريق حسن التغذية فضلا عن فوائدها الأخرى للزراعة وفائدة السماد الناتج منها في تحسين الانتاج الزراعي.

من ذلك يرى القارئ كيف ترتبط المسائل بعضها ببعض ونرون أن شؤون الفلاح الصحية لها علاقة متينة في شؤونه المالية والزراعية والاجتماعية والتعليمية والصناعية والتعاونية الخ. وكل منها تؤثر على الأخرى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

لقد كاتبت وحاضرت وأذعت عن التغذية ما فيه الكفاية وزيادة وبارك الله فيمن سمع ووعى وأدرك وفكر وعمل والعبرة بالتنفيذ لا بالأقوال ولا بالتفكير.

وتشمل السياسة الصحية في الريف، مسألة المساكن والشرب والقرى فقد وضعت لها نظم ولوائح، ولا بأس من بعض التعليق على ذلك.

مساكن الفلاح في الريف تعطينا مثلا قويا للدلالة على ارتباط شؤون الريف المصري الصحية وغير الصحية بعضها ببعض. إذ لابد من سعة الرزق حتى يتمكن الريفي من السكن في مسكن مناسب.

إذا ما اتسع رزق الفلاح وزادت ثروته فلا مندوحة له من اقتناء المواشي والطير وغيرها لضرورتها لأعماله الزراعية ... وهو يسكنها في منزله للمحافظة عليها ولا يمكن أن تقتصد إذا كان ذا ثروة ضئيلة رقيقة يعمل حظيرة لها بمفردة أو بالاشتراك مع الآخرين في عمل حظيرة مفردة للمواشي بعيدة عن المسكن لأنهم لا يأمنون عليها من سطو اللصوص، فاكتساب الأمن العام يساعد إيما مساعدة على تشجيعهم على الاطمئنان على ماشيتهم في الحظيرة العامة — لأن ذلك يبعد النافذيات ورائحة السباخ والذباب والناموس والهوام الخ ... عن أماكن نومهم وإقامتهم — ويرى من ذلك تأثير حسن الأمن العام واستتبابه على الصحة العامة بطريقة غير مباشرة.

ولما كان لي أبدية في تحسين حال المسكن في القرى ووضع نظام واشتراطات صحية لها، فأني أفضل الابتعاد قليلا عن القرى القديمة الى مكان قريب منها مستوف للشروط الصحية والأخذ من الآن في وضع برنامج انشائي للقرى والعزب التي تبنى حديثا، لتبنى من الآن تدريجيا على سنوات بالنظم الطرق الصحية في أماكن مناسبة فتنتقل القرية تدريجيا

بعد حين من مكانها الحالي الى مكانها الجديد — فلا يصرح من الآن بأي بناء جديد الا في المكان الجديد المخصص للقرية الصحية أو القرية النموذجية — وليس هذا من السهولة التي يراها البعض لأن في بعض النفوس حبا الى منزل الآباء والأجداد ، وربما كان عندنا لك أمر أكثر من الحنين اذ قد يكون عند الكثيرين ضرب من العار هجر مساكن الأجداد ، وهي حالة نفسية على ما بها من بعض المغالاة والسذاجة في نظر بعض الناس يجب على كل مصلح تقديرها — وذا ما كان مكان القرية الجديد قريبا أو ملاصقا للقرية الأصلية تزول بعض هذه الصعوبات لأن المكان الجديد يعد كامتداد للقرية أو كحي جديد منها ، وينبغي أن يلاحظ في القرية الجديد اتساع الشوارع — والمساكن وتخصيص أماكن للجرن وللسباخ وللسوق ولمعاهد التعليم وللمساجد وللمنشآت الصحية وغير ذلك مما لا داعي للافاضة فيه فهو معلوم للجميع وعند وزارة الصحة الخبر اليقين .

أما دور وسائل العلاج فقد كتبت عنها في مقالاتي واذعت وحاضرت ولا داعي لكثرة التكرار وتتلخص نظريتي في انشاء المستوصفات والعيادات وخصوصا المستشفيات ذات الأقسام الداخلية لعلاج جميع الأمراض خصوصا الأمراض المستوطنة لكثرة انتشارها في الريف ؟

غيرها لكثرة احتياج سكان الريف اليها ، فأي مبلغ يصرف عليها له ما يبرره لعظيم فائدتها ونفعها التي تعم الجميع ، وبعد أن تتم لنا وسائل العلاج هذه نفكر في غيرها وننفذ الأهم فالمهم على مدى السنين — ويكون برنامجنا الضروريات قبل الكماليات .

وأما المحافظة على الصحة ونشر قواعدها وانشاء مؤسساتها المختلفة ووسائل الوقاية من الأمراض والاحتياطات الصحية الأخرى فقد كتبت وزارة الصحة عنها ما فيه الكفاية وقامت بتنفيذ ما سمحت الظروف بتنفيذه — وأرجو ان يزداد التعاون بين مختلف الوزارات فيما ذكرت فتتعاون كل منها مع الأخرى حتى يتم كل وسائل النهوض بالريف المصري .

وسكانه أهلونا وعشيرتنا ومن متعلميهم (أطباؤنا وقضاتنا وحكامنا ونوابنا وشيوخنا وضباطنا وعلماؤنا وعمالنا وفضلاؤنا) وغير ذلك .

فهم أحق بنا ونحن أحق بهم فلنتعاون ولنتساند جميعا على ما فيه خير الريف ورفاهيته .

ولنتعظ لا بما عملت الدول العظمى لا في بلادها فحسب بل وفي بعض مستعمراتها ايضا من تحسين الصحة والعافية والمحافظة عليها والوقاية من الأمراض وعلاجها .

واعترف ان الريف عندنا احسن مما كان ولكن لا يزال امامنا الكثير من المطالب لنصل الى الغاية المنشودة .

ومن الصعوبات الظاهرة نقص عدد الأطباء والصيادلة والممرضات الفنيات بالنسبة لعدد السكان وهم من نستعين بهم في اصلاح حالة الريف الصحية ولا داعي للافاضة فيذا أمر معلوم ما

دكتور
سليمان عزمي